التعريف والنقد

عنترة وعبلة

حكاية غرامٍ بدوّية أعادت كتابتها وترتيبها دايانا ريجموند

Antar and Abla, A Bedouin Romance Rewritten and Arranged By Diana Richmond, London 1978 Published By Quartet Books Ltd.

مراجعة الدكتور صفاء خلوصي

مؤلفة الكتاب دايانا ريجموند من أسرة اسكتلندية مستوطنة في لندن ، تلقت تعليمها باديء ذي بدء في داون هاوس Downe House ومدارس الفن البلدية بلندن ، وبعد أن تقلّدت منصباً في النشر الموسيقي تزوجت شقيق زميلتها في الدراسة ، تلك التي أيقظت فيها اهتماماً خاصاً بمصر وفلسطين . وبعد أن فرّقتها السنوات الخمس من الحرب عن زوجها التحقت به في القدس ، ولكن الانتداب البريطاني كان في أخريات أيامه فانخرط زوجها سنة ١٩٤٧ في السلك الخارجي ، فعاشت المؤلفة فترة في بغداد وعمّان والقاهرة والكويت والخرطوم ، وزارت شمالي إفريقية وإيران

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واجتازت العديد من الصحارى وزارت المواقع الأثرية القديمة . وهي معروفة بدعمها للقضية الفلسطينية وقد نشرت من أجل ذلك مقالات في الكاثوليك هيرالد (Catholic Herald) ومجلة الأديان العالمية « World Faiths » والمجلة العالمية للشرق الأوسط Middle East International .

والذي ألهم المؤلفة هذا الكتاب صورة لعنترة رأتها لأول مرة في في القاهرة ثم في دمشق ، وبعد ذلك بفترة وجيزة في بيت بعض الأصدقاء العراقيين في إيطاليا ، مما حدا بها إلى كتابة هذه الحكاية مجدداً .

وعنترة — كما نعلم — شاعر عربي بطل عاش في القرن السادس الميلادي ، ولكنني لا أعتقد كما يعتقد بعضهم ، ومن بينهم المؤلفة ، أن الأصمعي من رجال الحاشية الأدبية في بلاط الرشيد هو الذي وضع الرواية في اثنين وثلاثين مجلداً وإنما هي من وضع القصاص أيام الحروب الصليبية .

والكتاب عبارة عن مختارات مترجمة ومحوّرة عن نسختين فرنسيتين ظهرتا سنتي ١٨٧٨ و ١٩٢٣ ونسخة انكليزية نشرت سنة ١٨٢٩ ، وهي تحدثنا جميعاً عن صراع عنترة كعبدٍ يحاول أن ينال مكانه الجدير به في العشيرة وحبه لبنت عمه عبلة وزواجهما . يتخلل كل ذلك حكايات أحداث الحب والفروسية والحرب والخيانة ومغامرات أقرانه ومعاصريه ؛ وبعض الأشخاص المذكورين حقيقيون والبعض الآخر من صنع الخيال ، كما أن بعض الحوادث المرويّة تاريخية إلى جنب أخرى مفتعلة . وقد قامت اولريكا لويد بتزيين الكتاب بصور تخطيطية إيضاحية جميلة . وإهداء الكتاب إلى : « توماس الذي ولد في عاصمة العباسيين ويحب الدنيا الناطقة بالعربية » وتوماس هو ابنها العراقي ولادة ، وقد وشحت الكتاب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بعبارة مقتبسة من « جورج ماكدونالد » في كتابه (خلف ريح الشمال) At The Back of the North Wind يقول فيها : « القاص البارع هو الذي يحاول أن يحسّن قصصه كلما أعاد رواياتها . ويبدو أن غلوب باشا قد ساعدها في مواضع من هذا الكتاب الذي يضم ثمانية وعشرين فصلاً . وتعقد السيدة المؤلفة مقارنة بين (الف ليلة وليلة) و (قصة عنترة بن شداد العبسي) فتقول إن العرب يفضلون الثانية على الأولى ربما لأنها أكثر واقعية ، ثم تبدي المؤلفة تذمرها من عدم اطّلاع الانكليز الاطلاع الكافي فيما يتعلق بالعرب وتاريخهم وأدبهم ، ورغم أن مراكش أقرب إلى انكلترة من اليونان بكثير فإن مدى التفاوت في الاطلاع شاسع ورقعة البلاد العربية الممتدة من أغادير إلى عدن والخليج أوسع وأهم ؛ وباعتقاد السيدة دايانا ريجموند أن العرب واقعيون لا يسمحون لأنفسهم أن يحلقوا في دنيا الخيال إلا في أدبهم ، ولا سيما قصصهم وأشعارهم ، وهم أبرع الناس في معرفة الصحارى واجتيازها بسرعة وسلام ، كما أن فيهم عشقاً خاصاً للعبارات البليغة وغراماً بالألفاظ الرائقة المنتقاة ، فلا عجب أن يكتبوا أجمل أشعارهم على الحرير وبأحرف من ذهب ويعلقوها في أقدس مكان ألا وهو الكعبة. فأي شعب في الدنيا بلغ من تقديسه للغة ما بلغه العرب ؟ ومن هؤلاء الذين علقت أشعارهم على جدران الكعبة عنترة . وكلّ رواية تنال الإعجاب وتُروى بلايين الأفواه عبر الصور ازدادت القصة سعةً وغنى وثراء في التعبير ، ولم يكن بوسع المؤلفة أن تلم بمختلف وجوه الرواية ، فاقتصرت على وجهين منها ، أولهما حبُّه الاسطوري لعبلة وثانيهما فوزه في احتلال المكانة اللائقة به في قبيلته ؛ وللقصة مغزًى بعيد هو أن الإنسان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مهما كان مغموراً مهملاً فقد يدرك ذرى المجد بجهده المتواصل . وليس الكتاب مجرد أحداث في حياة عنترة وما يتصل بقبيلته من قريب أو بعيد بل يستطرد من حين لآخر إلى عادات العرب وتقاليدهم ونمط عيشهم ، فمن ذلك أن النساء أيام عبلة كن يشربن لبن الشياه عند نهوضهن في الصباح الباكر وكان الخدم يحملون هذا اللبن إلى شيوخ القبيلة بعد أن يُبرَّد بنسيم الفجر ، وقد اتخذت الكاتبة طور قُصّاص العرب فهي تخاطب قرّاءها بقولها في الحكاية الثالثة عشرة : « وبينما كان عنترة غائباً ، أيها المستمعون لم يعد الرجال والنساء ، فضلاً عن أطفال القبيلة ، يبتهجون بوجود عبلة بينهم أو يسمعون ضحكاتها المرحة » ويُلاحظ أن الكاتبة قد نعتت فصولها الثانية والعشرين بالحكايات ، وباعتقادي أنها حاولت جاهدة نقل الأسلوب العربي الأصلي إلى قرائها الانكليز ، فقد تتخذ أحياناً طريقة الواعظين في كلامها كما هو الأمر في ختام الكلام الذى يدل على احترام عظيم تكنه السيدة للرسول الكريم ومحبة للعرب ومراعاة لشعورهم ؛ فخلافاً لما يذكره المؤلفون الأوربيون في خرائطهم استعاضت عن عبارة الخليج الفارسي بالخليج العربي ، ومن الطريف أن الرسامة التي زانت كتابها بالصور الايضاحية هي الأخرى قد جارتها في أسلوبها التقليدي ، فالصور تذكرنا بما نجده في المخطوطات العربية المصوّرة باستثناء النساء العاريات في بركة الاستحمام وقد لحفهنّ راكب مصادفة من بين القصب المحيط بالبركة .

وإذا جاز لنا أن نوجه شيئاً من النقد إلى الكتاب فإنما ينصب على الحكاية الأولى التي ليست بحكاية وإنما استعراض للقبائل والشيوخ وكان بالإمكان حذفه ودمج ما فيه من نقاط جوهرية قليلة في الحكاية الثانية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الموسومة بـ (ثياب عنترة) . ومن النقدات التي يمكن أن توجه إلى الكاتبة هي أنها لم تتبـع الأسلوب المتعارف عليه في نقل الأسماء العربية بالرسم اللاتيني كما حصل مع أسماء أخرى من نحو (كنعان) و (مضر) و (والمُهَلْهِل) وكنا نود لو أن غلوب باشا الذي راجع الكتاب قد نبهها إلى هذه الناحية .

وقد نجد فصلاً لا ينطبق عنوانه عليه تمام الانطباق كالفصل الرابع الموسوم (عبلة) وليس فيه عن (عبلة) سوى مشهد مفاجأة عنترة لابنة عمه وهي تمتشط وتتزين ، فتهرب منه إلى الجانب الآخر من الخباء وتحاول بعد ذلك أن تنهض كل يوم مبكرة لزينتها لئلا يفاجئها ابن عمها كرّةً أخرى في مثل هذه الحال عندما يأتيها باللبن الساخن فُطُوراً كلّ صباح ، هذا كل ما في فصل عبلة عن عبلة . ثم تمضي المؤلفة لتتحدث عما كان يقاسيه عنترة من ضرب والده المبرّح له ، مع أنه لم يكن أقوى منه ، وإنما كان يرضخ له ويذعن احتراماً له ليس غير ، وأخيراً يتفق أبوه وعمه على قتله في بعض الآجام ، وبينما هما يكمنان له وراء الأدغال إذ يخرُجُ عليه سَبُعٌ ضارٍ فيفرحان لأنه سيقوم بالمهمة عنهما ولكن سرعان ما يذهل الجمع المتآمر المختبىء عندما يشاهد عنترة يهجم على الأسد ويمسك بفكيه ويشقه شقين ويسلخ جلده ليستعمله فروةً له ، فيكبرون عمله ويعتدّونه منذ ذلك الحين بطلاً من الأبطال ، وتقص علينا الأستاذة الكاتبة في هذا الفصل كيف أن جماعة مغيرة تأتي غازية فتسبي عبلة فيستردها عنترة بعد أن يقتل سابيها ويوقع بالغزاة أفدح الخسائر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أعتقد أن خير عنوان لهذا الفصل (بطولة عنترة) لأن البطولة هي الطاغية عليه و (عبلة) موضوع ثانوي فيه ، ومن الممتع أنه خُصِّصَ فصلٌ مستقلٌ للأبجر ، فرس عنترة ، فهو في نظر السيدة دايانا لا يقل أهمية عن (عبلة) في مدار الكلام ومجريات القصة . وأخيراً كنت أودُّ لو أن الأشعار في الكتاب قد تُرجمت بدقة وبراعة أكثر ، ولكن هذا لا يمنعني من تقديم التهنئة لدايانا ريجموند على جوانب أخرى من كتابها الأنيق اللطيف (عنترة وعبلة) .

اكسفورد صفاء خلوصي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net